ثوب الزفاف

بقلم : زهير طه البيومي

كانت اميمه قد جاوزت الثلاثين من عمرها بعدة شهور ، ورغم ذلك مقد ظل ثوب الزفاف اهم ما يشغل بالها .. مكانت تقتطع كل شهر جنيها من راتبها وتدخره لشراء ثوب الزفاف الذى سترتديه حين تجلس الى جوار (سمعه) .. تماما كما كانت تفعل طوال خمسه عشر عاما قضتها في خدمتنا .. وكذلك قضتها في انتظار حبيبها(سمعه) حتى يعود من القاهرة بعد ان يكون قد وفق الى عمل هناك يساعده على حمل اعباء بيت الزوجية الذى سيجمعهما، وظل انتظارها ، ولكنها كانت تقول لنفسها دائما .. انها لابد ستزف اليه يوما ما ، مهما كان هذا اليوم بعيدا .

واخيرا وصل خطاب باسم اميمه دبل بالهناء تعرفه جيدا رغم انها لا تعرف القراءة .. تعرفه بالشكل .. بطريقة رسم حروفه التى تدوخلوة من سطورها رغم ما يتصف به الخط من رداءة ، انه خط الاسطى (سمعه) ، ولكن مرحتها ودهشتها جعلتاها لاتصدق ماحدث تمر على افراد البيت مردا مردا وتطلب الى كل واحد منهم ان يقراه عليها كلمة .. كلمة ، ولكنها لم تصدق ما ورد في الخطاب .. لم تصدق ان الاسطى (سمعه) قد وفق اخيرا في الحصول على وظيفه تضمن لهما العيش الكريم ولم تصدق انه سيأتى في نهايه الاسبوع كي تزف اليه ، وتمادت في عدم تصديقها هذا حتى انها احدثت الخطاب الى احته الصغيره التى كانت لا تزال في المرحله الابتدائية والتى كانت لا تكاد تتقن القراءة ، ولعل ذلك قد جعل اميمه تصدق ما ورد في الخطاب .

شمل البيت سعادة غامرة ، وخاصة امي التى كانت تعلم ما كان يدور في ذهن اميمة ، تعلم انها كانت تخشى ان يفوتها قطار الزواج بعد ان وصل بها العمر الى هذه السن ، وبعد ان كادت تفقد الامل في الزواج من (سمعه) ، ولكن طول العمر يبلغ الامل .. هكذا كانت تقول امي دائما لاميمة التى صبرت ونالت، ويعلم الله انها قد صبرت كثيرا.

كان على اميمة ان تستعد لشراء ثوب الزفاف بعد ان اخبرها (سمعه) في خطابه انه سيحضر بعد ثلاثة ايام ، وبدأت تستعد بعد ان خصمت على راتبها الشهرى بالاضافة الى مدخرات جنيهات اعدتها امي اياها كي تساعدها على بدء حياتها الجديدة .

احتت اميمة ترتدى ثوبها الذى كانت تدخره لاوقات الخروج ثم اطلت من

السائدة وجدت أن المطر لا يزال يبشر بغزارة فارتدت المعطف القديم الذى اهدتها امى اياه فى الشتاء الماضى ، والذى بدا واسعا عليها اذ كانت ضئيلة القوام ، وهبطت السلم حاملة معها كل ما ادخرت من نقود ، وسارت لى خارج المنزل وهى تحدث نفسها وتناجى خيال حبيبها .. ساخصص الجزء الاكبر من نقودى لشراء الثوب الذى سارتديه حين اجلس الى جوارك .. والذى سارتديه حين نخرج معا الى الحدائق العامة فى الاعياد ومى عطلتنا الاسبوعية كل هذا كل ما يشغل بالها طوال سيرها فى الطريق الى محل الثياب ، وكان لا يقطع عليها هذه الخواطر الجميلة الا مقابلتها لاحدى الصديقات ممن سبقتها الى جنة رضوان وتبادرها بالقراح الخطاب الذى ارسله (سمعه) والذى عهدته هو وحافظة نقودها الى صدرها ، ثم تسالها ان تقرا ما فيه، وتعود تسالها فى غمطه سؤالا ليست فى حاجة الى جواب عليه : « خلاص حلقجور .. بش كده » .. فترد عليها صديقتها بالكلمة التى يحمر لها خجلها قبلما كلمة السامعة عشرة ولكن امينة لا تلبث ان تسمع هذه الكلمة حتى تستلفتها بعد ان تخبرها انها ذاهبة لشراء ثوب الزفاف .. وانها قد خصصت الجزء الاكبر مما ادخرته من نقود لشراء ثوب الزفاف .

ظلت امينة هكذا تطوف شوارع المدينة .. تبحث بين الناس عن وجوه تعرفها كى تعبد تعبتها عليهم .. حتى انها تخطىء فتعبد تعبتها على الناس سمعوها منها منذ قليل ، وبقيت على هذه الحال حتى اعياها المسير فجلست على احد المقاعد المصفوفة على شاطىء النيل ، واخذت تتامل صفحة الماء الصافية التى تحولت الى اطار يضم صورتها وهى جالسة الى جوار (سمعه) فى ثوب الزفاف الجميل ، وتروح تحيل (سمعه) وهو يتامل الثوب الثمين فى دهشة .. وتفكر فى (سمعه) وحبه الذى اكتسب طبيعة حلوة ، حبه الذى لم تغيره الايام والاعوام وانما زادته قوة ، كل ذلك جعلها تقول انه كان من المكن ان تنتظر سنين وسنين ، وان تصبر وان تكد مع الزمن ويكبر حبها « لسمعه » ، ويكبر معه ثمن ثوب الزفاف .

ولكن امينة تنبهت ان الوقت قد ازف بعد ان رات الشمس وقد آذنت بالغروب فنهضت من مكانها على الفور وقطعت اشارع الى الرصيف الآخر فى سرعة ، وظلت تسير حتى وصلت الى شارع السكة الحديدة ، واخذت تتامل الاثواب الجاهزة فى « الفترينه » وتستفسر عن اسعارها ، حتى وصلت الى محل اعجبتها اسعاره ، فدلفت الى الداخل وهى تلم اطراف معطفها ذى الاكمام الواسعة ، واشترت بعض الملابس الداخلية ، ثم اخذت تجول بين اقسام المحل المختلفة حتى قادتها قدماها الى قسم لوازم العروس ، فاخذت تحيل نظرها بين الثياب المختلفة فى غاية الاطمئنان ، فقد خصصت لثوب الزفاف وحده عشرة جنيهات ، واخذت تمعن النظر فى كل ثوب على حدة بينما كانت تنتقل من جهات القسم فى سرور بالغ تتسمها من كتب الفتاة المشرفة على القسم التى كانت فى الثلاثين عشرة تقريبا ، والتى كانت تلاحق امينة فى كل مكان تنتقل اليه وتشيعها بنظرات وقحة كانما كانت

تستقر عليهـــا ان تدخل الى هذا المحل الذى لا يدخله غير عليه الناس ، ولكن اميمة تغلبت على الضيق الذى حل بها من مظهر الفتاة وقالت :

ـ اريد ثوبا فى حـــدود عشـــرة جنيهات .

وتناولت العاملة بشكل آلى ثوبين احدهما ابيض مطرز فوق الصـــدر واليمنه ، والثانى احمر ، وقالت :

ـ يمكنك ان تختارى واحدا .

وخيبت اميمة اذ انها لم تكن تتوقع ان يساوى احـــد هذين الثوبين جملة ماتقتضاه من كدها طوال ارمعة اشهر كاملة ، انها لم تدفع من قبل مثل هـــذا المبلغ ثمنا لثوب واحد ، ولكنها ستدفع اذا كان الثوب الذى يساوى هذا المبلغ سيرضى شـــعور الخيلاء الكامن فى نفسها ، انها تريد ثوبا لم يوجـــد من قبل .. ثوبا جميلا يبهر « سـميعه » ويجعله يغير ماء من الدهشة . تريد ثوبا يجعلها اجمل من تلك الحوريات التى كانت تسمع عنها فى « الحواديت» التى كانت تقصها عليها امهـا وهى صغيرة ، كل ذلك كل ما مهما فاتجهت بقولها للعاملة :

ـ لا ... اريد ثوبا مخصوصا ..

فاجابت العاملة فى تهكم ظاهر :

ـ تحبى « الموديل » الفرنسى مثلا ؟ هناك على الرف الكبير ..

لحظت اميمة تحيل نظـــرها بين الاثواب المختلفة الالوان ، بينما انشغلت عنها العاملة بالعملاء الاخرين بعد ان ايقنت تماما ان اميمة من السوة اللاتى يعشقن استعراض الصنائع والمساومة فى اثمانها ، ثم الانصراف .. هكـــذا احدثه العاملة تقلن باميمة بينما كانت اميمة تدير نظرها بين الاثواب المختلفة وتحيل نفسها فى كل واحد منها على حدة ، حتى علق نظـــرها بثوب كتب عليه « الثمن خمسة وثلاثون جنيها» احـــذت تحملق فيه داهلة وهى تهمس بينها وبين نفسها « المبلغ يسيرة .. والبد قصيرة » ، ولكنها سرعان ماطالت يدها حتى لامست الثوب ثم ارتدت الى مكانها فى سرعة كأنما قد اصابها مس كهربى،ولكنها سرعان ما تناست الشعور بالجرم الذى خلفه ملمس هذا الثوب فى اطراف اصابعها ، واخذت تحيل نفسها فى هذا الثوب الرائع جالســـة الى جوار (سميعه) ، يشيعها نظرات الحسد من العيلات والســـوة ، بينما تسمعها نظرات الرجال الخاشعة محملقة فى ذراعها وصدرها الناصع الباض الذى يكشف عنه هذا الثوب ولكنهـا تعود فتعدل من التفكير فى هذا الثوب حين تلوح لها صورة (سميعه) وقـــد تجهم وجهه غضبا وغـــيرة عليها من نظرات الرجال وخاصـة انه رجل من الذين لايحبون ان تتبرج نســـاؤهم ، ولكنها تعود فتتهم نفسها بتلمس الاعذار لانها لا تستطيع ان تدفع ثمن الثوب ، وان هذا الثوب ليس به ما يعيب ،وتمتد يدها الى الثوب مرة اخرى ، وتتناوله فى تؤدة كأنها تتأمله ، ثم تضـــعه فى حقيبتها التى احضرتها لكى تحمل ما تشتريه من حاجيات ، بينما تستمر فى استعراض الاثواب كلها لاتزال حائرة فى انتقاء الثوب الذى تريد ، بينما ترداد دقات قلبها وترتفع حتى تكـــاد ان تصل الى آذان الموجودين متأهـــد الخواطر فى التدافع الى رأســـه ..

« ماذا يحدث لو اكتشفت البقعة انها مزقت الثوب وسلمتها الى الشرطة » احدث بخيال نفسها من (الورقة) الى جوار (بطاقة) بقعة الخمرات وغيرها من المجرمين واللصوص وبقع الهوى ، وتصور صديقاتها وقد تجاهلنها ، و (سيمه) وقد تخلى عنها وهجرها ، ومخدومها وافراد اسرتها وقد تخلوا عنها ايضا ، وهكذا بدت ابواب الحياة وقد اوصدت دونها سلما، حتى « سيمه » الذى انتظرته طويلا ، والذى فكرت فى مزقة الثوب الا لتبدو فى عينيه اجمل النساء ، تخلى عنها ايضا ، وتتباعد المسافة بينها وبينه كلما تمادت فى تفكيرها وخواطرها الشريرة . وتلوح لها صورة المحاكمة ، وصورة الحاجب وهو يصيح بصوته الذى تمتلئ له اركان القاعة « محكمة » ثم تنادى عليها ليس باسمها مجردا ، وانما مسبوقا بكلمة المتهمة ، ولاحت لها صورة القاضى وهو يملى الحكم عليها بالسجن ، والحارس وهو يسوقها امامه موثوقة اليدين سلما يشيعها « سيمه » بكل النظرات الاحتقار والسخرية .

كل هذه صور اعتر لها كيانها ، وجعلها تتلفت بلهفة ويسرة . وتحاول أن تخرج الثوب من الحقيبة كى تعيده الى مكانه ، ولكن العاملة الصغيرة عادت لترتيبها فى قلق وكأنها قد احست أن فى الامر شيئا ، فاتجهت نحوها فى سرعة تستفسرها عما انتهت اليه من رأى ، فاشارت اميمه الى ثوب معيد عليه ثوب ابيض ناصع ، ارتسمت عليه صورة « سيمه » وهو يبتسم لها وقالت :

— اريد هذا الثوب .

ولكن العاملة اشارت الى زميلة لها وقالت لاميمه :

— هذه هى العاملة المختصة بهذا القسم ، حيث ثوبك المفصل . وهرعت اميمه على الفور نحو العاملة الاخرى ، واحدت تساومها على ذلك الثوب البسيط ، ورغم ان ثمنه كان معتدلا الا انها كانت تعرف انه لا يمكن ان تشتريه، اذ انها لاتستطيع ان تفتح الحقيبة لتحرر العقود حتى لايكتشف امرها ، وتسقط من نظر « سيمه » الذى طالما انتظرها وارادها عليه طاهرة الاذيال، وبعد ان ادركت انها تمادت كثيرا فى مساومة العاملة شكرتها وانه سرعت خارجة ، ولكن العاملة لحقت بها حاملة اليها الحقيبة التى نسيتها أو تناستها لتتخلص من ذلك المأزق ، ولكن ميمه التى احست وكأن العاملة حاستتلصق بها جريمة ، التفتت نحو العاملة وقالت بينما كانت الكلمات تتعثر على لسانها

— شكرا ... ليست حقيبتى ... اجل سيدة اخرى قد نسيتها

وانسرعت اميمه الى خارج المحل ، وعند الباب وقفت لتتفقد الصعداء . وكأنها قد تخلصت من حمل كاد يخنقها، ونظرت الى ثوبها الملقى فى حسرة ، ثم سارت بسرعة فى طريقها شاردة الذهن ، تنظر الى الاحذية الشريفة فى ابل وتتخيل نفسها وقد رفعت الى « سيمه » فى اجمل اثوابها .